لكن نظرية الانعكاس لا تعني بأن الاديب يعكس الواقع بشكل خام وبدون تدخل ذاتي ، فالواقع ينعكس في العمل الادبي بعد أن يخضع لنمط ابداع محدد يتناسب مع موقع الكاتب الاجتماعي ورؤياه للعالم .

وكما ان النص الادبي يتسم بتاريخيته ، فان الاديب من حيث هو منتج يخضع للقانون التاريخي أيضا ، لذلك فان ممارسة الاديب ودوره في ساحة الصراع والايدولوجيا التي يحملها تنعكس في الوحدة الشكلية ـ المضمونية لعمله ، كما ان حدود حركته الاجتماعية تحدد صدق مضمون عمله الادبي ، وتدخل الاديب في عمله الادبي لا يتم فقط من حيث هو ذات متميزة (خالق النص) بل تتم أيضا من حيث هو شكل ـ ذات أي تعبير عن ميزان القوى الاجتماعية في فترة تاريخية محددة .

ان رواية « أم سعد » أو « العجوز » لا يمكن أن ترى بدون وجود المقاومة ، انهما التعبير الادبي عن ظاهر حركة الشعب الفلسطيني التي ولدتها شروط اجتماعية ومعاناة تاريخية . ان النص هنا يعكس ما هو موجود بشكل مادي أي ما هو موجود فعلا ، وقد يومىء النص ويشير الى المستقبل ، لكن ذلك « التنبؤ » يستقي مع ذلك جذوره ومرتكزاته من مادية الواقع . ان ما نريد أن نؤكد عليه هنا هو مادية وتاريخية النص الادبي ، فالادب والاديب هما نتاج للتاريخ والظروف الاجتماعية ، وان أصالة الاديب تكمن في قدرته على عكس الواقع التاريخي ، ودقة هذا الانعكاس وضبطه أو نسبيته تعتمد على مدى مشاركة الاديب في صنع الحركة التاريخية من حيث هو شكل ـ ذات متميزة .

« العجوز » وديالكتيك الموت والحياة :

يعكس أفنان القاسم الكاتب الفلسطيني في روايته « العجوز » وضع الشعب الفلسطيني بعد نكبة ١٩٤٨ ثم المسار الشائك الذي سلكه هذا الشعب للانتقال من حالة الموات والسكون الى حالة الحركة والحياة . ويرصد أفنان هذا خلال رواية ذهنية أو واقعية رمزية ، فالشخصية عنده ليست نمطا اجتماعيا يعكس كلية اجتماعية بمعنى جورج لوكاتش ، وليس بطلا ايجابيا يذرع مجال حياة يومية محددة التفاصيل والتناقضات بمعنى بريشت ، بل اننا هنا ازاء شخصية ـ فكرة تنمو وتتمحور وتتحرك لتحقق معادلات ذهنية للكاتب ترصد الحاضر والماضي والمستقبل ، فالبطل هنا استبدل بفكرة ـ رمز تتحرك في فضاء زماني واسع لتحقق ذاتها في النهاية . ان شخصية أفنان هذه تذكرنا بالفكرة عند هيجل التي تتلمس نفسها عشواء في البدء ، ثم تتفتح خلال التاريخ ، لتحقق ذاتها أخيرا وتعثرها عليها بوعي . ولا نقف في رواية «العجوز» أمام لوحة اجتماعية مكونة من أناس محددين ، بل أمام لوحة ذهنية تعكس بشكل روائي قدر وحركة الفلسطيني ، الذي يغرق بعد النكبة في سديم خانق ثم يبدأ يطفو على السطح حتى يتحرر في النهاية .

ويدخلنا أفنان هنا في مجالات زمنية ثلاثة يعكس كل منها وضعا تاريخيا ، وهذه المجالات ليست محددة المعالم بل هي مختلطة ومتشابكة ومحكومة بقانون عام هو الزمن النفسي ، تيار الوعي الذي ينتقل من مجال الى آخر ، وينتقل الوعي التعيس هنا من مدار الى آخر باحثا عن توازن منشود ومفقود ، لذلك فهو لا يعرف الاستقرار والراحة لانه محكوم بشروط اضطهاد عدة . وتتم اللعبة هنا بين الزمان والوعي ، أو بشكل أدق تتم في مجال وحدة ثنائية : الزمان / الوعي ، فهما يتعانقان ويدور كل منهما على سطح الآخر بدون نضب بحثا عن شرط تاريخي غائب ويجب اعادة انتاجه . ولا تتم دورة الوحدة المركبة وعي / زمان بدون تحديد مكاني ، بل على العكس من ذلك